مجلة المجمع العلمي العربي

انشئت في اول كانون الثاني سنة ١٩٢١ الموافق ٢١ ربيع الثاني سنة ١٣٣٩

تصدر في دمشق مرة في الشهر

قيمة اشتراكها ليرة ونصف سورية

فهرست الجزء الخامس من المجلد الثاني

ايار سنة ١٩٢٢

صفحة

١٢٩ غابر الاندلس وحاضرها — السيد محمد كرد علي

١٤٧ وصف ربوة دمشق لابن طولون — احمد تيمور باشا

١٥٣ جلسة عامة

١٦٠ ملاحظة — الشيخ محمد بن ابي شنب

مجلة المجمع العلمي العربي

الجزء ٥ / ايار سنة ١٩٢٢ م الموافق ٤ رمضان سنة ١٣٤٠ هـ المجلد ٢

غابر الاندلس وحاضرها

(١) صدر الكلام ومصادره

زرت في الشتاء الماضي (١٣٤٠ — ١٩٢٢) بعض امهات مدن الاندلس، فارادني غير واحد من الاحباب على ان احدثهم بطرف مما شاهدت في ربوعها من بقايا حضارة العرب، فاجبتهم الى رغبتهم، شاكراً حسن ظنهم، وقد رأيت ان انفع مشاهداتي، بشيء من مطالعاتي، عن هذا القطر ليتعرف القارئ من الغابر، وجه الحاضر، ويقيس في الجملة ما كان هناك في عهد امتنا، على ما هو كائن اليوم في عهد غيرها، اذكر ما أثره العرب في تلك القاصية من حضارة، وأنبوه من مجد خالد على جبين الدهر، والسبب الذي به ارتفعت الاندلس حتى عدت ارقى مملكة في عهد شبابها، والاعراض التي عرضت لها، فهرمت فزال سلطانها، وتداعى عمرانها، وابذعر سكانها، وربما نفعت في الاخلاف، سيرة الاسلاف، خصوصاً في ارض لم يكتفوا بان فتحوها، بل عمروها وتديروها، وحكموها واحكموها، ومدارسة حياة الاجداد، تربي اخلاق الابناء والاحفاد، يصيبون فيها حكمة بالغة، وموعظة حسنة، والتاريخ يلقن الفكر الجديد، وينير الطريف بالتليد، والله وارث الارض ومن عليها.

وهاك ما رجعت اليه من الكتب والرسائل في تأليف الفصول التالية ومنه تعالى استمد المعونة ومن الراسخين في العلم تصحيح ما عساهم يعثرون عليه من الهفوات .

(١) طبقات الامم لصاعد الاندلسي (طبع بيروت) (٢) نفح الطيب للمقري (مصر) (٣) المعجب في تلخيص اخبار المغرب للمراكشي (ليدن) (٤) قلائد العقيان للفتح بن خاقان (مصر) (٥) مطمح الانفس له (الاستانة) (٦) البيان المغرب في اخبار المغرب لابن عذارى (ليدن) (٧) الاحاطة في اخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (مصر) (٨) رقم الحلل له (تونس) (٩) الحلل الموشية له (تونس) (١٠) الذخيرة في شعراء الجزيرة لابن بسام (مخطوط) (١١) اخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر (مونيخ) (١٢) التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري (مصر) (١٣) المسالك والممالك لابن حوقل (ليدن) (١٤) احسن التقاسيم للمقدسي (ليدن) (١٥) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبي (ليدن) (١٦) تقويم البلدان لابي الفدا (باريز) (١٧) اخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر امرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم (مجريط) (١٨) الجزء الثاني والعشرون من كتاب نهاية الارب في فنون الادب للنويري وفيه اخبار ملوك الاندلس من العلويين والامويين ومن ملك بعد بني امية الى حين انقراض الدولة العبادية (غرناطة) (١٩) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (الجزائر) (٢٠) كتاب محمد بن تومرت مهدي الموحدين (الجزائر) (٢١) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية للغبريني (الجزائر) (٢٢) المؤنس في اخبار افريقية وتونس لابن ابي دينار (تونس) (٢٣) ديوان ابن حمديس الصقلي السرقوسي (رومية) (٢٤) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (ليدن) (٢٥) العيون والحدائق في اخبار الحقائق (ليدن) (٢٦) تاريخ المسعودي (باريز) (٢٧) تاريخ الكامل لابن الاثير (مصر) (٢٨) تاريخ ابن خلدون (مصر) (٢٩) الحلة السيراء لابن الابار (ليدن) (٣٠) كتاب القضاة بقرطبة للخشني (مجريط) (٣١) تكملة التكملة لابن الابار (مجريط) (٣٢) التكملة لكتاب الصلة لابن الابار (الجزائر) (٣٣) صبح الاعشى للقلقشندي (مصر) (٣٤) معجم البلدان لياقوت الحموي (ليبسيك) (٣٥) المكتبة العربية الاندلسية وفيها ستة كتب وهي الصلة لابن بشكوال وبغية الملتمس لابن

عميرة الضبي والمعجم لابن الابار والتكملة لكتاب الصلة لابن الابار وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي وفهرست ماروَاه عن شيوخه من المدونين المصنفة في ضروب العلوم وانواع المعارف ابو بكر بن خليفة لاموي الاشبيلي نشرها المستشرقان الاسبانيان كوديرا وريبرا (مجريط) F. Codera et J. Ribera : Bibliotheca Arabico-Hispana (Madrid) (٣٦) المكتبة العربية الصقلية ليشل آماري M. Amari : Bibliotheca arabo-sicula (Leipzig) (ليبسيك) (٣٧) محاضرة ابن زيدون لاحمد زكي باشا نشرت في السنة الثانية من مجلة البيان (مصر) (٣٨) السفر الى المؤتمر لاحمد زكي باشا ايضاً (٣٩) قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون (ليدن) (٤٠) رسالة ابن زيدون وشرحها للصفدي (٤١) ترجمة ابن عباد (ليدن) (٤٢) ترجمة ابن زيدون (ليدن) (٤٣) ترجمة ابن عبدون وملوك بني الافطس (ليدن) (٤٤) قاموس الاعلام لشمس الدين سامي (تركي طبع الاستانة) (٤٥) مجلة المقتطف (٤٦) مجلة المقتبس (مصر والشام) (٤٧) دائرة المعارف الاسلامية (ليدن) Encyclopédie de l'Islam, Leyde (٤٨) تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزي (باريز) : Dozy Histoire des Musulmans d' Espagne, Paris (٤٩) التاريخ العام للافيس ورامبو (باريز) Lavisse et Rambaud : Histoire générale, Paris (٥٠) تاريخ العرب والمغاربة في اسبانيا والبرتغال لكوند (باريز) J. Conde : Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal, Paris (٥١) تاريخ العرب لسيديلو (باريز) : Sedillot : Histoire générale des Arabes, Paris (٥٢) تاريخ العرب لهوار (باريز) C. Huart : Histoire des Arabes. Paris (٥٣) مجالة في تحليل نفوس الشعوب الاوربية لفوليه (باريز) Fouillée : Essai d'une psychologie des peuples européens. Paris (٥٤) المخطوطات العربية في الاسكوريال لهارتويغ دارنبورغ (باريز) Hartiwig Derenbourg : Les manuscrits arabes de l'Escurial, Paris (٥٥) الصنائع في اسبانيا

Gómez-Moreno : El arte en Espana (مجريط) (لكوميز مورينو
Madrid) (٥٦) الكتابات العربية في غرناطة لاميليو لافوانتي اي الكنترار
Emilio Lafuente y alcántrara : Inscriptiones ar- (مجريط)
abes de Grenada (Madrid) (٥٧) دليل اسبانيا والبرتقال لبيدكر
Baedeker : Espagne et Portugal, Leipzig (ليبسيك) (٥٨) بحث
وصفي لمصانع العرب تأليف رافائيل كونترياس (مجريط) Raphahël Contreras :
Etudes descriptives des monuments arabes. Madrid
Salomon Reinach ; (٥٩) تاريخ الاديان العام لسلمون رينياخ (باريز)
Histoire générale des religions. Paris (٦٠) اسبانيا في القرن
العشرين لمارفو (باريز) Marvaud : L'Espagne au XXe siècle. Pairs
Quillardet ; (٦١) الاسبانيون والبرتقاليون في بلادهم لكيلاردي (باريز)
Espagnols et Portugais chez eux, Paris (٦٢) سبانيا والبرتقال
L'Espagne et le Portugal illustrés. Paris (باريز) مصورتان
La grande encyclopédie (٦٣) دائرة المعارف الافرنسية الكبرى (باريز)
Nouveau Larousse (٦٤) معجم لاروس المصور (باريز)
française, Paris illustré, Paris (٦٥) بحث في حياة ابن زيدون لاوغست كور (الجزائر)
Auguste Cour : Ibn Zaïdoûn, Alger (٦٦) تعليم اللغة العربية في
M. Asin Palacios : l'ens- اسبانيا لميكائيل آسين بلاسيوس (الجزائر)
eignement de l'arabe en Espagne. Alger (٦٧) معجم الكل في
Tout en un : Encyclopédie des واحد او موسوعات العلوم البشرية
connaissances humaines (٦٨) دستور في الصنائع الاسلامية لسالادين
Saladin et M'geon : Manuel d'art musulman ومجيون

(٣) تحية الاندلس

عشقتها ولا تسعدني الايام بامتاع النظر في جمالها ، واستطلعت طلع اخبارها ،

فروى الرواة عنها عجائب اقلها مما يستهوي النفوس المتمردة ، ويأخذ بمجامع القلوب الجافة العاصية ، تفردت بين بنات جلبها بما خصت به من معاني الحسن والاحسان ، فكثر الخطاب والطلاب ، وهي لا تنثأ تبدي لمن أم حماها صنوفاً من اللطف والظرف ، وتخاطب البعيد والقريب بنغر باسم ، وترشقهم بنظرات ، لا تخلو من غمزات ، تريد بها الهزوء بنكبات الزمان ، والاستخفاف بسخافة الانسان .

عشقتها منذ عهد الصبا ، وعشق الصبا شديد ، لما قرأته الباصرة من وصف محاسنها وحملته الى البصيرة فتفكرت فيه ، وتدبرت خوافيه وحواشيه ، وزادني غراماً بها ما سمعت من ان ناساً قبلي أصيبوا بما اصبت به ، وعدوا الدول في حماها ولو ساعة سعادة العمر ، وحسنة الدهر : العشق فنون وعشقي كان لارض الاندلس ، عليها من كل عربي الف الف سلام ، على مر العصور والايام .

عشقتها لكثرة ما تلوت من آثار من درجوا على ادمها من ابنائها وغير ابنائها ، وكانت المخيلة تتصورها في مظاهر صح بعضها يوم اللقاء ، وآخر كان بالطبع كالخيال ، في الاندلس ثم نحو نصف مدنية العرب الباهرة ، وقضوا في ارجائها نحو ثمانية قرون كانت بجملتها وتفصيلها عهد السعادة والغبطة ، ودور ظهور النوابغ وارباب الابداع والقرائح ، وكم من امة من امم الحضارة الحديثة على كثرة ما اقتبست ، وجدت ، لم يتيسر لها حتى يوم الناس هذا ان تبلغ مكانة الاندلس فكان هذا الصقع في منقطع ارض المغرب وآخر ارض العرب بين البحرين المحيط والمتوسط برهاناً ازلياً على فرط استعداد العرب للعلوم والصناعات وناعياً على من انكروا لافراطهم في الشعوبية فضل هذه الامة على الحضارة .

اقام الغربيون ضروباً من المصانع من بيع واديار ومتاحف ومكاتب ومدارس وجسور وسدود وطرق ومعابر وقناطر ونصب وبرك ، لكنهم لم يصنعوا على كثرة تفننهم في هذا الشأن منذ عهد اليونان والرومان ، طرزاً من البناء يكملك ولا لسان له فيقول ، وينظر اليك فيعمى في شغاف قلبك ولا عين له فتنظر ، ويطربك بتساوق نغماته من دون ما صناجة ولا وتر ولا لحان . مصانع كثيرة بقيت بقاياها في طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة سلبتها الفتن والجهل تارة شطراً من بهائها ، وسالتها حيناً فابقت

عليها ، او رممت شيئاً مما اضرت به عوامل الايام وان لم تعد اليها نضرتها الاولى .

سلام على ارض طيبة خصها الخالق باجمل الهبات الطبيعية الطيبة ، فلم ينقصها زكاء تربة في نجادها ووهادها ، ولا مياهاً عذبة دافقة من هضابها على شعابها ، ولا اشجاراً باسقة وزروعاً خاصبة في سهلها ووعرها ، ولا اعتدال مواسم جمال اقليم ، وصحة ابدان زانها الصانع السماوي بايجاده ، كما زانها الصانع الارضي بابداعه ، وما اجمل الطبيعي والصناعي ، اذا تواعدا الى الاجتماع في خير البقاع .

ليالي الانس ، في جزيرة الاندلس ، وايامها الغر ، في سالف الدهر ، فيك قامت سوق الآداب ، بما ارتفعت به رؤوس العرب على غابر الاحقاب ، وكمل في ربوعك الذوق العربي حتى ظن بعضهم انك نسيت كل شيء ماعدا الادب ، وما هذه الآثار الابدية الاثمرة عملك وصناعاتك وزراعاتك : سلام على ارواح علمائك وفلاسفتك ونوابغك واديبائك وامرائك ما كان ارجح احلامهم ، يوم سنوا للعرب سنة الاخذ امن السعادتين ، وشرعوا لهم شرعة المدنية المثلى ، حملوا فأجملوا من الشرق الى الغرب تعاليم في الدين والدنيا كانت صفوة العقول الى عهدهم فادهشوا من عاصرهم ، وخلفهم من الاجيال ، ونسجوا لهم على غير مثال نسيجاً رقيقاً ، كتبوا لهم فيه سجلاً رقت حواشيه ، ونظاماً متقناً في حكم الانسان للانسان ، يطبع في تاليه اذا تدبره ، طبيعة حسن الذوق والطبع ، وينشئه على ارقى مثال من الحيال في الكمال والجمال ، مثال حي من حضارة العرب في القارة الاوربية عامة وفي شبه جزيرة اسبانيا خاصة ، يفتخر به العرب على اختلاف اصقاعهم وحق لهم الفخر لان الاندلس العربية الاسلامية كانت ومازالت مدرسة الغرب المسيحي نزل طلابه في قرونهم المظلمة على علماء العرب فاوسعوهم من مكارم اخلاقهم واكرموا مثواهم بما علموهم ، وما اضفى العربي على طالب قراه ، والمعتصم بحماه ، فالراجح دور الانحطاط ، وازف رحيل ذاك الرعيل ، من ارض كان الغرب كله يعدهم فيها الثقل دخيل ، ابقوا لهم تلك المصانع ناطقة بفضلهم ، معلمة لهم معاني ليست في معاجم نفائسهم ، ومكذبة على غابر الايام من ينكر المحسوس ، ويغمط الحق لصاحبه ، ويستهوي به الغرض ، فيشوه وجه الحق الجميل .

الى اليوم لم يزل في الغربيين اناس يصعب عليهم الاعتراف بمزية للعرب بباعث من

بواعث النفوس اللئيمة ، فلا يكادون يصدقون حتى بما ورد عن هذه الامة في كتبهم دع كتبها من اعمال هذه الحضارة الغريبة وما ذاك الاثر الضئيل الباقي من عاديات الاندلس العربية ، الا برهان جلي على ما كان هناك من عدل شامل ، وعقل كامل ، ونظر نافذ ، ويد صناع ، اربت على ما عمل من مثلها في سائر البقاع والاصقاع

(٣) تقويم الاندلس

اخذت العرب اسم الاندلس من اسم سكانها الاصليين الفانداليس *Vandales* فقالوا فاندالسيا او فاندالوزيا *Vandalitia* او *Vandalusia* واطلقوا عليها اسم الجزيرة من باب التغليب فقالوا جزيرة الاندلس كما قالوا جزيرة العرب وما هي في الحقيقة الا شبه جزيرة لاتصالها من اقصى الشمال بجبال البيرنات او الثنايا كما كان يعرفها العرب ، قدروا القسم الجنوبي من شبه جزيرة فاندالس او ابيريا او اسبانيا بمسيرة ثلاثين يوما طولا وزهاء عشرين يوما عرضا يحدها البحر من اطرافها الاربعة الا من الشمال الشرقي وميزان وصف الاندلس كما قال ابن سعيد : انها جزيرة قد احدقت بها البحار فاكثرت فيها الخصب والعمرة من كل جانب .

والاندلس في عرف اهلها اليوم عبارة عن ثماني ولايات ولاية المرية وولاية قادش وولاية قرطبة وولاية غرناطة وولاية جولفا؟ وولاية جيان وولاية مالقة وولاية اشبيلية ومساحتها السطحية ٨٦٦٨٧ كيلو متراً مربعاً وسكانها زهاء اربعة ملايين فهي نحو خمس اسبانيا الحالية بسكانها ونحو سدسها بمساحتها السطحية . هذا ما يطلق عليه اليوم اسم الاندلس بيد ان حكم العرب تجاوز ذلك الى برشلونة وما وراءها من الشرق والى اشبونة وما جاورها في الغرب ولم يبق في ايدي الاسبانيين والبرتقاليين من هذه الجزيرة التي تبلغ مساحتها زهاء نصف مليون واربعة آلاف كيلو متر مربع سوى اراض متحزة ضئيلة من الشمال تعرف ببلاد الجلالقة واستوريا .

فالعرب لم يتملكوا اذاً الجزيرة بأسرها حين افتتحوها وانما ملكوا معظمها ولذلك لا تعرف مساحة الاندلس العربية على التحقيق ويقول المسعودي ان مسيرة عمائر الاندلس ومدنه نحو من شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من اربعين مدينة وقال

غيره ان في ارض الاندلس العامر والغامر فكانت من ثم مساحة الاندلس تختلف بحسب تغلب العرب على اعدائهم او تغلب اعدائهم عليهم وكم من الاقاليم والمدن في الشمال والغرب والشرق دخلت مرات في حكم العرب ثم خرجت عنهم فقد كان عملها لعبد الرحمن بن معاوية في القرن الثاني ثلاثمائة فرسخ في ثمانين ثم صغرت في القرن الثامن حتى اصبحت — كما وصفها العمري — كمفحص القطاة ضيقا ، ومدرج النمل طريقا .

لا جرم ان مقام العرب في الاندلس كان غير طبيعي لمجاورتها لامم قوية الشكيمة مخالفة لها في الجنس واللسان والدين حتى ان عمر بن عبد العزيز لما ولى السمح بن مالك عليها امره ان يكتب اليه بصفتها وانهارها وكان رأيه انتقال اهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين قال المؤرخ وليت الله كان ابقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا ان يرحمهم الله

وصف المراكشي ما كان في ايدي الاسبان والبرتقال من ارض الاندلس سنة ٦٢١ هـ فقال اول المدن في الحد الجنوبي الشرقي على ساحل البحر الرومي مدينة برشنونة (برشلونة) ثم مدينة طركونة ثم مدينة طرطوشة والمدن التي على غير الساحل في هذا الحد المذكور مدينة سرقسطة ولاردة وافراغة وقلعة ايوب هذه كلها يملكها صاحب برشنونة وهي الجهة التي تسمى ارغن . وفي الحد المتوسط مابين الجنوب والغرب مدينة طليطلة وكونكة واقليج وطلبيرة ومكادة ومشريط (محريط ؟) ووبذ وايلة وشقوبية هذه كلها يملكها الادفنش وتسمى هذه الجهة قشتال . وتجاور هذه المملكة فيما يميل الى الشمال قليلاً مدن كثيرة ايضاً وهي سمورة وشلمكة والسبطاط وقمرية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالبيوج وتسمى هذه الجهة ليون . وفي الحد المغربي الذي هو ساحل البحر الاعظم اقيانس مدن ايضاً منها مدينة الاشبونة وشنترين وباجة وشنترة وشنتياقو ويابرة ومدن كثيرة يملكها رجل يعرف بابن الريق ووراء هذه المدن مما يلي بلاد الروم مدن كثيرة . ثم ذكر ما يملكه المسلمون لعهده من الاندلس فاورد حصن بنشكلة وطرطوشة وبلنسية وشاطبة وجزيرة الشقر ودانية ومرسية وغرناطة وحصون لرقة وبلش وقلية وبسطة ووادي آش والمرية وحصن منكب ومالقة والجزيرة الخضراء

وقوم القلقشندي الاندلس في المائة الثامنة فقال ان الاندلس اقامت بايدي المسلمين الى رأس الستمائة سنة من الهجرة ولم يبق منها بيد المسلمين الا غرناطة وما معها من شرق

الاندلس عرض ثلاثة ايام في طول عشرة ايام و باقي الجزيرة على سعتها بيد نصارى الفرنج وان المستولي على ذلك منهم اربعة ملوك الاول صاحب طليطلة وما معها ولقبه الادفونش سمة على كل من ملك منهم وعامة المغاربة يسمونه الفنس وله مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشتمل على طليطلة وقشتالة واشبيلية و بلنسية وقرطاجنة وجيان وجليقية وسائر اعمالها الثاني صاحب لشبونة وما معها وتسمى البرتقال ومملكته صغيرة واقعة في الجانب الغربي وهي تشتمل على لشبونة وغرب الاندلس الثالث صاحب برشلونة وارغن وشاطبة ومرقسطة و بلنسية وجزيرة دانية وميورقة . الرابع بيرة وهي بين عمالات قشتالة وعمالات برشلونة وقاعدته مدينة بنبلونه و يقال للملكها ملك البشكنس .

هذا في الجملة تقويم الاندلس في القديم وكما توغلت في سمت الشمال صعب المرور لكثرة الجبال وتراحي المسافات وهي اليوم في الخطوط الحديدية سهلة ففي الجملة فاذا جئت من مدينة باريز وهو الطريق الذي سلكناه تصل الى بحريط في ست وعشرين ساعة وهي ١٤٥٥ كيلومتراً ومن بحريط الى قرطبة ٤٤٢ كيلومتراً ومن قرطبة الى اشبيلية ١٣١ كيلومتراً ومن غرناطة الى جبل طارق ١٠٣ كيلومتر ويتأتى اختصار هذه المسافات اذا كانت القطر تقصد الى البلد مباشرة بدون نقل او تعاريج ولكن تقل فيها الخطوط المستقيمة والقاطرات .

(٦) فتح الاندلس

لما فتح موسى بن نصير مولى بني امية افريقية وما حولها اي تونس وما وراءها سنة ثمان وسبعين للهجرة و بلغ طنجة سار يريد مدائن على شط البحر وفيها عمال صاحب الاندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها . وكان يليان احد ملوك الاندلس لموجدة وجدها على بعض الملوك من قومه في تلك البلاد بعث بالطاعة لموسى ، واقبل به حتى ادخله المدائن بعد ان اعتقد لنفسه ولاصحابه عهداً رضيه ، واطمأن اليه ، ثم وصف له الاندلس ودعاه اليها فبعث رجلاً من مواليه يقال له طريف في اربعمائة رجل ومعهم مائة فارس فسار في اربعة مراكب حتى نزل جزيرة سميت به لنزوله فيها وكانت هذه الجزيرة معبر مراكبهم ودار صناعتهم فاغار على الجزيرة فاصاب شيئاً ورجع سالماً

وذلك سنة احدى وتسعين . ثم دعا موسى مولى له يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر والموالي ليس فيهم عرب الا قليل فدخل في تلك السفن الاربع في سنة اثنتين وتسعين واخذت السفن الاربع تختلف بالرجال والخيل وضمهم الى جبل على شط البحر منيع فنزله وسمي به جبل طارق والمراكب تختلف حتى توافى جميع اصحابه .

ولما بلغت ملك الاندلس رذريق صاحب طليطلة غارة طريف على الاندلس جمع جموعه قيل مائة الف او شبه ذلك فبعث موسى على سفن كثيرة كان عملها بخمسة آلاف مقاتل فتوافى المسلمون بالاندلس عند طارق اثني عشر الفاً ومعهم يليان في جماعة من اهل البلد يدلهم على العورات ويتجسس لهم الاخبار فالتقى رذريق صاحب طليطلة وطارق بن زياد بموضع يقال له البحيرة فانهزم رذريق ثم مضى طارق الى مضيق الجزيرة فمدينة استجة وحارب فل العسكر الاعظم وهزمه ثم ورد طارق عينا من مدينة استجة على نهرها على اربعة اميال فسميت العين عين طارق وفرق جيشه فارسل فرقة الى قرطبة واخرى الى رية وثالثة الى غرناطة وسار هو في عظم الناس يريد طليطلة ففتحت كلها وكذلك مدينة تدمير واسر احد ملوك الاندلس ومنهم من اعتقد على نفسه اماناً ومنهم من هرب الى جليقية في الشمال ثم سار طارق حتى بلغ طليطلة وخلى بها رجالاً من اصحابه فسلك الى وادي الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج يسمى فج طارق .

وفي سنة ثلث وتسعين دخل موسى بن نصير في ثمانية عشر الفاً من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر وقد بلغه ما صنعه طارق بن زياد فحسده وخشي ان ينال شرف الفتح دونه امام الخليفة من بني امية . فلم يلبث ان فتح من المدن ما لم يفتحه طارق مولاه فافتتح مدينة شذينة وقرمونة واشبيلية وحاصر هذه اشهراً فهرب اهلها الى مدينة باجة فمضى موسى الى مدينة ماردة وقاتلهم عليها اشهراً فصالحه اهلها على ان جميع اموال القتلى واموال الهاربين الى جليقية للمسلمين واموال الكنائس وحليها له ثم افتتح سرقسطة ومدائنها .

ذكروا ان المسلمين انتهوا الى مدينة لوطون فاعدة الافرنج ولم يبق لاهل الاسلام شيء لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك الا جبال فرقوشة وجبال بنبلونة وصخرة جليقية فاما

الصخرة فلم يبق فيها مع ملك جليقية الا ثلثمائة رجل تلفوا بالموت والجوع والحصار فلما لم يبق منهم الا ثلثمائة رجل ورأى ذلك المرتبون على حصارهم استقلوهم فتركوهم فلم يزالوا يزدادون حتى كانوا سبب اخراج المسلمين من جليقية وهي قشتيلية .

هذه زبدة مما قاله المؤرخون في فتح الاندلس ولا شك ان قرب سواحلها من شواطئ افريقية قد ساعد العرب كثيراً على هذا الفتح فان المجاز او الزقاق كما كانت يسميه العرب بين البربر والعدوة[1] وبر الاندلس قريب جداً يسهل معه نقل الذخائر والجيش من افريقية وذلك لان الزقاق في موضع يعرف بجزيرة طريف من بر الاندلس يقابل قصر مصمودة بازاء سلا في الغرب الاقصى وعرضه اثنا عشر ميلاً ومن الجزيرة الخضراء في الاندلس الى مدينة سبتة ثمانية عشر ميلاً . والباخرة تقطع المسافة اليوم من الجزيرة الخضراء او جبل طارق الى طنجة فرضة الغرب الاقصى في نحو ثلاث ساعات .

وانت ترى ان معدات الفتح عند العرب كانت قليلة ومع هذا استصفوا الاندلس في مدة وجيزة وذلك لان الاختلاط القديم المستحكم للجوار بين اهل الاندلس وبين اهل شمالي افريقية وتغلب الاندلسيين احياناً على بلاد البربر اي الغرب الاقصى والاوسط قد هيأ لسكان البلاد بل لقوادها وحكامها من العرب ان يعرفوا معالم الاندلس ومجاهلها ويقفوا على مواطن الضعف من حكوماتها فقد جاؤوها والاختلاف بين ملوكها على اشده والبلاد قد جاعت قبل مجيئهم ثلاث سنين (من سنة ثمان وثمانين الى سنة تسعين) ثم وبئت حتى مات نصف اهلها او اكثر . واذا صح ان الملك الاعظم في طليطلة جيش على العرب مئة الف مقاتل وهو مستبعد فان جيش موسى بن نصير البالغ اثني عشر الفاً قد تغلب عليه لا بعدده بل بما للعرب من الاضطلاع بامور الحرب هذا واهل البلاد كانوا

(١) العدوة بضم العين المكان المتباعد ويطلق العرب بر العدوة على ما سامت الاندلس من شمالي افريقية وبعد عن بلادهم ويعنون بالعدوة المغرب الاقصى والاوسط والادنى اي مراكش والجزائر وتونس . وقال صاحب التاج وبر العدوة بالاندلس واليه نسب شهاب الدين بن ادريس العدوي عن قاسم بن اصبغ قيده الرشاطي . ولعل العدوة هذه بلدة من بلاد الاندلس ليست مشهورة والمشهور ان العدوة كما قلنا وايده علماء الجغرافيا من العرب .

في الجملة يريدون الخلاص مما هم فيه من سوء الحال ولا سيما اليهود فانهم كانوا قبل بضع سنين قد ذاقوا الامرين من حكوماتهم ومواطنيهم المسيحيين فلما جاء العرب الفاتحون كانوا ادلاءهم واكبر ردء لهم لعلمهم بانه ينفس خناقهم بالفاتحين وكان المسلمون كلما دخلوا بلداً جعلوا نصف حاميته من اليهود والنصف الآخر منهم ثقة في ابناء اسرائيل وضعها المسلمون فيهم مدة كونهم في الاندلس .

تولى البلاد المفتوحة عمال الدولة الاموية في الشرق وتعاقب عليها قوادهم ومواليهم منذ سنة ٩٢ هـ وخطب باسم خلفائهم على منابرها ثم خطب مدة قليلة للعباسيين[1] بعد سقوط دولة الامويين بالمشرق حتى اذا كانت سنة ١٣٨ جاء من الشرق هارباً عبد الرحمن ابن معوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المسمى بالداخل فتغلب بواسطة جماعة من اهل بيته ومواليه آل مروان وبما له من العصبية في قبائل زناتة اخواله وكانت والدته منهم حتى استولى على الاندلس وبذل اهلها له الطاعة فاصلح من شأنها ورفع وابناؤه واحفاده من بعده شان خلافتهم هناك واجمعت القلوب على حبهم وقل المنتقضون على ملكهم المتوثبون على سلطانهم ولقد انصف المنصور العباسي عندما لقب عبد الرحمن الاموي بصقر قريش لانه « عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً أعجمياً مفرداً ، فمصر الامصار ، وجند الاجناد ، ودون الدواوين ، واقام سلطاناً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيمته » .

انقرض ملك بني مروان من الاندلس سنة ٤٠٧ هـ على رأس مائتي سنة وثمان وستين سنة وثلثة واربعين يوماً بعد ان جمعوا الشمل ورأبوا الصدع واحيوا المعالم

(١) دعا عبد الرحمن بن معاوية لنفسه عند استغلاظ امره واستيلائه على دار الامارة قرطبة ويقال انه اقام اشهراً دون السنة يدعو لابي جعفر المنصور متقبلاً في ذلك يوسف الفهري الوالي قبله الى ان افرد نفسه بالدعاء . ويقال ان عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم اشار عليه بذلك عند خلوصه اليه فقبله الا انه لم يعد اسم الامارة وسلك الامراء من ولده سنّته في ذلك الى عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله فهو الذي تسمى بالخلافة بعد سنين من سلطانه ودعي بامير المؤمنين لما استفحل امره واستبان له ضعف ولد العباس وانتشار سلطانهم بالمشرق ، وذلك في آخر خلافة المقتدر بالله جعفر بن احمد المعتضد منهم ذكر ذلك ابو مروان ابن حيان مؤرخ الاندلس .

ونشروا العدل وخدموا الحضارة وكانت ايامهم اعراساً وافراحاً فتفرق الملك بايدي ملوك الطوائف فكان «كل ملك لما بيده فضبط اشراف العالات ازمة امورهم وركبوا ظهور غرورهم وتنافسوا في انتحال الالقاب السلطانية فاتوا من ذلك بكل شنيعة» الى ان قام رأس المرابطين وامير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني صاحب المغرب الاقصى واعاد للبلاد مع ابنه علي بن يوسف مسالف نضارتها ودعا للخلافة العباسية على منابر الاندلس ولم تزل الدعوة للعباسيين وذكر خلفائها على منابر الاندلس والمغرب الى ان انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصامدة في بلاد السوس .

تنفس خناق البلاد بالقوة الجديدة التي جاءت بها دولة المرابطين لشد ازر المسلمين في الاندلس كما عادت اليهم بعض القوة على عهد الموحدين وكان هؤلاء لا يتوقفون عن نجدة اخوانهم في الاندلس حتى ان الخليفة المنصور من الموحدين لما دنت وفاته جمع بنيه والموحدين ووصاهم بوصايا منها ايها الناس اوصيكم بتقوى الله «واوصيكم بالايتام واليتيمة» ارادبالايتام اهل جزيرة الاندلس وباليتيمة بلاد الاندلس الا ان احوال الجزيرة اختلت في اواخر دولة امير المسلمين علي بن يوسف فاوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم الى الدعة وايثارهم الراحة وضاعتهم النساء فهانوا على اهل الجزيرة وقلوا في اعينهم واجترأ عليهم العدو واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم وكادت الاندلس تعود الى سيرتها الاولى بعد انقطاع دولة بني امية فاستدعى عقلاء الجزيرة بني مرين من بر العدوة فجاءهم اميرها سنة ٦٥٨ في جيش ضخم فملك بالاندلس ثلاثة وخمسين مسوراً مابين مدن وحصون وهو اول من ملك العدوتين من بني مرين وجهد الفرنج فدوخ بلادهم وكانت قبل جوازه الى الاندلس تستطيل على المسلمين وملكوا قواعد الاندلس واكثر حصونها مثل قرطبة واشبيلية وجيان وشاطبة وبلنسية ومرسية وغيرها ولم تنتشر للاسلام راية منذ وقعة العقاب[1] سنة ٦٠٩ الى ان جاءت رايته وكانت

(١) هذه الوقعة وقعة العقاب هي المعروفة عند الافرنج باسم لاس نافاس دي تولوزا *Las Navas de Tolosa* وهي قرية من عمل ولاية جيان اشتهرت بانتصار ملوك ارغن وقشتالة ونافار على العرب سنة ١٢١٢ — ٦٠٩هـ وقد ضربوا العرب ضربة لم يتمكنوا بعدها من التوغل في بلاد اسبانيا

الحروب والغزوات متصلة بين العرب واعدائهم في القرن الخامس والسادس والسابع وكثيراً مايؤدي ملوك العرب الجزية للافرنج بعد ان كان هؤلاء في القرن الاول والثاني والثالث والرابع يؤدون الى العرب الجزية . ولما اغلظ ابن تاشفين لالفونس الكلام في المكاتبة قال هذا : « بمثل هذه المخاطبة يخاطبني وانا وابي نغرم الجزية لاهل ملته منذ ثمانين سنة وكان ذلك سنة تسع وتسعين وار بعمائه »

وبعد ان زال حكم الموحدين من اسبانيا دخلت في حكم محمد بن يوسف بن هود من بطليوس الى مرسية وقرطبة واشبيلية سنة ٦٢٦ ولما هلك التف المسلمون حول محمد بن يوسف بن الاحمر من أسرة بني نصر فاستولى على الاندلس سنة ٦٢٩ فدام فيه وفي اعقابه نحو قرنين ونصفاً كان الضعف قد اشتد دولتهم اولا حتى لقد صالح ابن الاحمر الفنس ملك اسبانيا سنة ٦٦٥ على ان اعطاه نحو اربعين مسوراً من بلاد المسلمين من الشرق فقال ابو محمد الرندي يرثي الاندلس ويستصرخ اهل العدوة من بني مرين قصيدته المشهورة التي يقول فيها

دنى الجزيرة خطب لاعزاء له ... هوى له احد واندك ثهلان
اصابها العين في الاسلام فامتحنت ... حتى حنت منه اوطان و بلدان
فسل بلنسية ما شأن مرسية ... واين شاطبة ام اين جيان
واين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان

وعاد امر المسلمين فضعف و بنو الاحمر آخر ملوك الاندلس يستصرخون الموحدين من أهل العدوة فينجدونهم حتى رسخت اقدام الملوك من بني الاحمر و بني نصر في بقعة صغيرة من البلاد جعلوا غرناطة عاصمتها ولما انقرضت دولة الموحدين اعتمد بنو الاحمر على قوتهم في حماية سلطانهم حتى ضعف امرهم وصحت نية الاسبان على اخراجهم من شبه جزيرة اسبانيا باتفاق ايزابيلا الكاثوليكية وفرديناند واتحاد ملوك ارغن وقشتالة وتاج تحت سلطان واحد وكان خروج آخر ملك من بني الاحمر من بلاد الاندلس سنة ٨٩٧ هـ و يؤمئذ انتهى حكم العرب هناك .

***

(٥) — عمران الاندلس

في ارض اندلس تلتذ نعماء ... ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش منتفع ... ولا تقوم بحق الانس صهباء
واين يعدل عن ارض يحض بها ... على التهادة ازواج وابناء
واين يعدل عن ارض تحث بها ... على المدامة اهواء واغياء
وكيف لا يبهج الابصار رؤيتها ... وكل روض بها في الوشي صنعاء
انارها فضة والمسك تربتها ... واخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به ... من لا يرق وتبدو منه اهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً ... ولا انتشار لآلي الطل انداء
وانما ارج النـد استشار بها ... في ماء ورد فطابت منه ارجاء
واين يبلغ منها ما اصفه ... وكيف يحوي الذي حازته احصاء
قد ميزت من جهات الارض حين بدت ... فريدة وتوفى ميزها الماء
دارت عليها نطاقاً بحر خفقت ... وجداً بها او تبدت وشي حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب ... والطير يشدو وللاغصان اصغاء
فيها خلعت عذاري ما بها عوض ... فهي الرياض وكل الارض صحراء

« ابن سفر المريني »

كانت شبه جزيرة اسبانيا في عمرانها قبل الفتح العربي منحطة عن عامة الممالك الاوربية . حكمها الرومان وكانوا من خير من شاد بنياناً ، واقام في المعمور عمرانا ، ومع هذا لم يبلها من عنايتهم كبير امر ، فلما جاء العرب الفاتحون في العقد الاخير من المئة الاولى كان عهدهم الاول عهد الفتوح على نحو ما كان عهدهم في الشام قلما اتفتحوا فيه الى تجويد البناء حتى اذا ورد على الاندلس من الشرق بل من دمشق عبد الرحمن الداخل الاموي سنة ١٣٨ هـ نقل مع جماعته اسلوب امته في العمران ، وكان سبقه اليها جمهور من الشاميين ، نقلوا اسلوب بنائهم معاداتهم واصول معايشهم ، فاعتمدوا في بناء قصورهم ودورهم على الهندسة الدمشقية في الغالب ، وجعلوا في الدور فناء او

صحناً في وسطه بركة ماء وعلى جانبيها الازهار والاشجار ، وتقوم بعض طنوف الطبقة الثانية من البناء على عمد من الرخام وغيره ، والدور طبقتان فقط طبقة سفلية للصيف والطبقة العلوية للشتاء ويدخل الى الدار من دهليز . رسم خطط هذه الدور بادئ بدء مهندسون من الروم ثم اصبحت مع الزمن هندسة خاصة للعرب على ما كان شأنهم في الشام .

يقول بعضهم ان العرب لما وصلوا اسبانيا لم يكن لهم هندسة مخصوصة فقلّ فيهم كالاسبانيين الابداع والايجاد ولكنهم تفننوا في النقش . واقدم مصانعهم مسجد قرطبة انشأه عبدالرحمن الداخل سنة ٧٨٥ م والنقوش فيه والفسيفساء من عمل صناع من الروم ومن هنا نشأت الصناعة العربية وتمثلت في المساجد والبيع والقصور والحمامات والابراج والابواب الحصينة . ومن اغرب المباني مسجد طليطلة مثال الهندسة العربية وقاعدة منارة مسجد اشبيلية وكثير من الارتجة والابواب ولما استولى الاسبان على اشبيلية جعل ابن الاحمر غرناطة عاصمته فقام قصر الحمراء وظهرت بدائعه وهو اجمل زهرة من زهرات الصنائع النفيسة التي تفتقت اكمامها بايدي العرب . وظلّ صناع العرب في اسبانيا قروناً بعد ذهاب دولتهم يعملون في المصانع الاسبانية ويدخلون في هندستها بعض اساليبهم فاثروا بها تأثيراً عظيماً في الابنية المبنية على الاسلوب القوطي والايطالي (الرنيسانس) .

ولقد كان لملوك الاندلس وامرائها وقوادها وعامة من تولوا خطط الحكم والقضاء والحسبة غرام باستكمال فخامة الملك وتشييد القصور ، وجلب المياه ، وبناء الارصفة ، واقامة القلاع والحصون . بدأ بذلك عبد الرحمن الاول وجرى آل بيته وعظماء مملكته على قدمه في هذا الشأن ومنهم عبدالرحمن بن الحكم (٢٣٨) الذي كان « اول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة وكسا الخلافة ابهة الجلالة فشيد القصور ، وجلب اليها المياه ، وبنى الرصيف ، وعمل عليه السقائف ، وبنى المساجد الجوامع بالاندلس ، وعمل السقاية على الرصيف ، واحدث الطرز ، واستنبط عملها ، واتخذ السكة بقرطبة ، ونقم ملكه ، وفي ايامه دخل الاندلس نفيس الوطا وغرائب الاشياء » . ومنهم عبد الرحمن بن محمد الذي قال فيه صاحب العقد : « ان الملوك لم تزل تبني على اقدارها ويقضي عليها بآثارها وانه بنى في المدة القليلة ، ما لم تبن

الخلفاء في المدة الطويلة نعم لم يبق في القصر الذي فيه مصانع اجداده ، ومعالم اوليته ، بقية الا وله فيها اثر محدث اما تزييد او تجديد

كانت البلاد نسقًا واحداً في العمران حتى كان للقرى ايضا نصيب وافر من العناية ولذلك كثر عددها حتى قالوا انه كان على الوادي الكبير فقط اربعة عشر الف قرية فكنت على رواية ابن سعيد اذا سافرت من مدينة الى مدينة لا تكاد تنقطع من العمرة مابين قرى ومياه ومزارع والصحاري فيها معدومة أي في القسم الذي تأصل فيه حكم العرب . ومما اختصت به ان قراها في نهاية من الجمال لتصنع اهلها في اوضاعها وتبييضها لئلا تذو العيون عنها بل هي طراز من مناظر قد التفت بالبياض والزخرفة تخطف بالابصار عند وقوع شعاع الشمس عليها

لاحت قراها بين خضرة ايكها كالدر بين زبرجد مكنون

قويت حركة العمران بالطبع حيث كان يقيم الخليفة والسلطان ولما ابتنى عبد الرحمن ابن محمد في غربي قرطبة مدينة الزهراء خط فيها الاسواق وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات واجتلب الى ذلك بناء العامة ، وامر مناديه بالنداء ، الا من اراد ان يبني داراً او يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله اربعمائة درهم فتسارع الناس الى العمارة فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت ان تتصل الابنية بين قرطبة والزهراء والمسافة اربعة اميال .

كان بناء الاندلسيين بالآجر والحجر وكان الحجر عندهم انواعاً منه الحجري والاحمر والابيض والجزع وكانوا يختون السواري والعمد من مقالعهم على الاغلب . وقيل ان سواري جامع قرطبة جلبت من البيع القديمة من جنوبي فرنسا وايطاليا ومن افريقية والاستانة وسواء قطعت من مقالع الاندلس او جلبت من القاصية فان في ذلك فضلاً كبيراً للعرب يدل على معرفتهم الاشياء الحسنة وقدرتهم على حمل هذه الاثقال في البر والبحر مع قلة الآلات الرافعة وقصور علم الحيل عما هو عليه في عصرنا

قال احد الباحثين من الفرنجة : في اسبانيا ميدان لدرس الصناعة العربية المغربية منذ بدايتها وكان التردد بادي بدي بادياً عليها الى ان ظهرت في مظهرها هذا على غاية من الغرابة والظرف . وقال بعضهم ان الهندسة العربية قد افرغت جهدها في

قصور الحمراء واتت ماوسعتها الاجادة والظرف بامثلة تأخذ بمجامع القلوب في العمران ولو لم يكن جل الاعتماد على الخشب والجص في البناء وهما مما تقل متانته لاتت منهما آثار خالدة اكثر مما أتت ولكن مجموعها مدهش غريب يمجد خيمة العرب الرحل في البادية . ومن اغرب ما اصطنعوه عمل المقرنص في القباب مؤلفاً من عدة قباب صغرى متناسقة بدون ان ترى اللحمة بينها والنقش فيها قليل الا ما كان من جمل نقشت بالحروف الكوفية او العربية المشبكة الاندلسية

قلنا ومعظم الآثار التي بناها الاسبان بعد سقوط آخر دولة الاندلس كانت بايدي صناع من العرب ابقوا عليهم لقيام مصانعهم وذلك لان الاسبان كانوا متأخرين في الهندسة والصنائع النفيسة واشد مايتنافس فيه الاسبان الى اليوم القيشاني فانك تراه في كل بيت وكنيسة وحائط ومنزل ومدرسة ومتحف وهو انواع منه مايجعل على الارض ومنه مايجعل على طول قامة الانسان في الجدران المختلفة وللآجر عندهم شأن عظيم في البناء وقد يدهم قرونًا كما شاهدنا ذلك في خرائب الفسطاط بمصر واكثره من بناء القرن الاول للهجرة

يصعب تعداد المصانع التي شادها العرب في اوقات مختلفة في الاصقاع التي نزلوها كما يصعب اعطاء حكم تام على معالمهم لان كثيراً من بنيان الاندلس عور بتداول الايام فمحي في مدنها ودساكرها قول احد الاندلسيين في بلنسية وقد عاث العدو فيها

عاثت بساحتك الظبا يا دار ومحا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار
ارض تقاذفت الخطوب باهلها وتمخضت بخرابها الاقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها لا انت انت ولا الديار ديار

للبحث صلة

محمد كرد علي